MAYADA
International Conference on Arabic Studies
ميادة
الملتقى العلمي العالمي للدراسات العربية
Universitas Islam Negeri Maulana Malik Ibrahim Malang, Indonesia
http://conferences.uin-malang.ac.id/index.php/mayada

أثر التعلق بالشعر العربي الجاهلي في التحلي بالقيم العلية العفة والمروءة أنموذجين

أجدير نصر الدين
قسم العلوم الإسلامية، جامعة أبي بكر باقايد تلمسان، الجزائر
adjdir13500@yahoo.fr

Abstract

Let no one doubt that the Arabs were of sound nature and attained the reins of perfection in matters of morality, and there is no dispute that the laws came to perfect the virtues of morality and demonstrate its high status in preserving the order of nations. Rather, the one who examines the texts of legislation finds that the fruits of its rhythm purify and refine souls, and morals are the angel of command. For the Arabs in pre-Islamic times, in order to achieve it, they spent countless amounts of time and money and fought wars and horrors. (1) In explaining the meanings of the search terms, the Arabic language has accustomed us to the abundance of vocabulary and its contempt. Perhaps it is important in this research to mention the terms that the Arab used in expressing the sublime and sublime morals to which he was accustomed and which his thought concluded as a source of pride and a standard for goodness. (2) Poetic evidence devoted to the meanings of chastity and jealousy. One of the finest manifestations of chivalry is jealousy and chastity among the Arab, and this is necessary for pride and pride in honor and the preservation of honor. History has told us that transgressing against the honor of the Arab leads to wars whose fires do not subside. At the end of the tour with this brief research on the chastity of the Arab and his jealousy of his honor, we find: Legislation Islam elevated women and demonstrated their great value, and that they are the sister of men in society and their companion in work and accounting. And chastity and jealousy are the most sublime things that legislation has immortalized, as long as it does not completely conflict with it. Invoking forbidden means for good purposes is not sufficient. He killed the Arab with the intention of getting rid of the disgrace of the purposes that were imaginary to him and which were not guaranteed to happen, so the Sharia wrote that they were invalidated. Explaining that Sharia law came to preserve souls and that it is one of the greatest universal goals that it takes into account both existence and non-existence.

Keywords: pre-Islamic Arab Poetry, high status, chastity, chivalry

ملخص

فلا يمتري أحد في أن العرب كانوا على الفطرة السوية، وحازوا مقاليد الكمال في مسائل الأخلاق، ولا جدال في أن الشرائع أتت لاستكمال فضائل الأخلاق وبيان علوّ منزلتها في حفظ نظام الأمم، بل إن الممحص لنصوص التشريع يجد ثمرات إيقاعها تزكية النفوس وتهذيبها، والأخلاق ملاك الأمر عند العرب في الجاهلية، ولأجل تحقيقها بذلوا نفيس الأنفاس من الأوقات والأموال وخاضوا الحروب والأهوال. (١) في بيان معاني مصطلحات البحث، عوّدنا اللسان العربي كثرة المفردات وتعاورها، ولعل من المهم في هذا البحث أن أورد المصطلحات التي استعملها العربي في التعبير عن الأخلاق السامية والراقية التي تعودها والتي خلص إليها فكره على أنها محط مفاخرة ومعيار سؤدد. (٢) الشواهد الشعرية المكرسة لمعاني العفة والغيرة، من أرقى مظاهر المروءة الغيرة والعفة عند العربي وهذا لازم الاعتزاز والافتخار بالشرف وصون الأعراض، وقد روت لنا التواريخ أن التعدي على أعراض العربي يجر حروبا لا تخمد نيرانها. وفي ختام التطواف بهذا البحث المختصر عن عفة العربي وغيرته على عرضه نجد: أن التشريع رفع الإسلام المرأة وبين عظيم قدرها وأنها شقيقة الرجل في المجتمع وقرينته في العمل والحساب؛ وأن العفة والغيرة ما أرقى ما خلد التشريع ما لم يصادم أصلا كليا؛ والتذرع بالوسائل المحرمة لمقاصد حسنة لا يشفع، فوأد العربي بقصد التخلص من العار من المقاصد المتوهمة عنده والتي لا قطع بحصولها فكتب الشرع بإبطالها؛ وبيان أن الشريعة أتت للحفاظ على النفوس وأنها من أعظم المقاصد الكلية التي راعتها من جانب الوجود والعدم.

الكلمات الرئيسية: شعر العربي الجاهلي، القيم العلية، العفة، المروءة

المقدمة

فلا يمتري أحد في أن العرب كانوا على الفطرة السوية، وحازوا مقاليد الكمال في مسائل الأخلاق، ولا جدال في أن الشرائع أتت لاستكمال فضائل الأخلاق وبيان علوّ منزلتها في حفظ نظام الأمم، بل إن الممحص لنصوص التشريع يجد ثمرات إيقاعها تزكية النفوس وتهذيبها، والأخلاق ملاك الأمر عند العرب في الجاهلية، ولأجل تحقيقها بذلوا نفيس الأنفاس من الأوقات والأموال وخاضوا الحروب والأهوال. ولما كان أمر القيم من المهمات تواتر ذكرها في أخبار العرب وفي أشعارهم في معرض الفخر والتباهي، وتقرير ما كان في بيئتهم من عوائد يتحلى بها الأشراف وعلية القوم.

توجب تمحيص ما تواتر عن العرب وإخضاعه لميزان التشريع محاكمة واحتكاما، فهل كل ما اعتبره العربي قيمة أبقاه التشريع؟ وهل اعتبر الجاهلي معنى الغيرة والمروءة بالمعنى الشائع بيننا؟ وما مدى رقيّ نظرة الجاهلي لهاته القيم؟ وللإجابة على هذا الإشكال توزع النظر على النحو التالي: الورقة الأولى، في بيان معاني مصطلحات البحث؛ الورقة الثانية، في الشواهد الشعرية المكرسة لمعاني المروءة والغيرة؛ خاتمة.

نتائج البحث ومناقشتها

أ. في بيان معاني مصطلحات البحث

عوّدنا اللسان العربي كثرة المفردات وتعاورها، ولعل من المهم في هذا البحث أن أورد المصطلحات التي استعملها العربي في التعبير عن الأخلاق السامية والراقية التي تعودها والتي خلص إليها فكره على أنها محط مفاخرة ومعيار سؤدد، وكانت على النحو التالي:

١. تعريف العرض

عرض الرجل نفسه وبدنه، وقيل العرض: موضع المدح والذم من الإنسان، سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره. وقيل أيضًا: هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه أن ينتقص ويثلب. وذكر أيضًا أن العرض: عرض الإنسان، ذم أو مدح (علي، ٢٠٠١).

٢. تعريف العفة

لغة، العفة الكف عما لا يحل ويجمل عف عن المحارم والأطماع الدنية، وعف أي كف، الاستعفاف طلب العفاف وهو الكف عن الحرام والسؤال من الناس أي من طلب العفة (منظور، ٢٠٠٩).

وقيل العفة هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطها فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة (الأبياري، ١٩٨٥).

اصطلاحا، العفة هي ضبط النفس عن الملاذ الحيوانية، وهي حالة متوسطة بين إفراط هو الشره وتفريط هو جمود الشهوة، وهي أس الفضائل من القناعة والعفة والزهد وغنى النفس والسخاء (العجمي، ٢٠٠٧).

٣. تعريف الغيرة

لغة، الغيرة بالفتح مصدر قولك غار الرجل على أهله يغار غيرا و غيرة و غارا (خاطر، ١٩٩٥). الغيرة وهي الحمية والأنفة يقال رجل غيور وامرأة غيور (منظور، ٢٠٠٩).

اصطلاحا، هي ثوران الغضب حماية على أكرم الحرم وأكثر ما تراعى في النساء (الأصفهاني، ٢٠٠٧). الغيرة كراهة شركة الغير في حقه (العجمي، ٢٠٠٧).

ب. الشواهد الشعرية المكرسة لمعاني العفة والغيرة

من أرقى مظاهر المروءة الغيرة والعفة عند العربي وهذا لازم الاعتزاز والافتخار بالشرف وصون الأعراض، وقد روت لنا التواريخ أن التعدي على أعراض العربي يجر حروبا لا تخمد نيرانها.

ويحرص الجاهلي على ألا يمس بسوء، وإذا تحرش أحدهم به، أو شعر أن شخصًا أراد الانتقاص منه، ولو بتلميح أو بإشارة أو بغمز، ثار وهاج مدافعًا عن نفسه وعرضه (علي، ٢٠٠١).

١. العفة من شروط السيادة عند العرب

جعل العربي العفة والغيرة كالشجاعة والكرم من أهم الشروط التي يجب توافرها في سيد القوم، بل وتكون مرجحا حال تعدد طالبي الزعامة، وذكروا أن بسطام بن قيس فضل على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث، أن بسطاما كان فارسا جوادا عفيفا، وكان عتبة عفيفا بخيلا وكان عامر جوادا فارسا عاهرا، فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلوه (الحوفي، ١٩٥٢).

قال برذع بن عدي الأوسي مفتخرا (ناجي، ١٩٨٤):

لعمر أبيها لا تقول حليلتـــي ألا إنه قد خانني اليوم برذع
وأحفظ جاري أن أخاتل عرسه ومولاي بالنكراء لا أتطلع

فعفته في صون عهد الزوجية وعهد الجوار.

٢. من عفة العرب صون النساء

من نخوة العرب وغَيْرتهم أنه كان مِن عادتهم أنهم إذا وردوا المياه أن يتقدّم الرجال والرِّعاء ثم النساء حيث يغسلن أنفسهنّ وثيابهنّ ويتطهرن آمنات ممن يزعجهنّ، فمن تأخر عن الماء حتى تَصْدُر النساء، فهو الغاية في الذل، كما كانوا يفخرون بغضِّ البصر عن الجارات ويعتبرون ذلك من العفة والغيرة على الأعراض (ناجي، ١٩٨٤).

وشاهده قول عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يـواري جارتي مثواها

ويُحكى أن أعرابياً في الجاهلية زُفّت إليه عروسه على فرس، فقام وعقَر تلك الفرس التي ركبت عليها العروس، فتعجب الجميع من حوله وسألوه عن سرِّ عمله فقال لهم: خشيت أن يركب السائس مكان جلوس زوجتي ولا يزال مكانها دافئاً.

قال علقمة بن عبدة:

منعّة لا يستطاع كلامها ... على بابها من أن تزار رقيب
إذا غاب عنها البعل لم تفش سره ...
وترضي إياب البعل حين يؤوب

قال شاعر (الأصمعي، ١٩٢٦):

لعمرك ما أهويت كفّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحو فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلّني رأيي عليها ولا عقلي

وأعلم أنّي لم تصبني مصيبة ... من الدّهر إلا قد أصابت فتىً قبلي
ولست بماشٍ ما حييت بمنكر ... من الأمر ما يمشي إِلَى مثله مثلي
ولا مؤثراً نفسي عَلَى ذي قرابتي ... وأوثر ضيفي ما أقام عَلَى أهلي

وقال آخر (الحميد، ١٩٧٧):

تقنَّع بالكفاف تعش رخيا ... ولا تبغ الفضول من الكفاف
ففي خبز القفار بغير أُدم ... وفي ماء الفرات عني وكاف
وفي الثوب المرقع ما يغطى ... به من كل عريٍ وانكشاف
وكـل تــزين بالمرء زيــن ... وأزينُـه التزيُّن بالعـفـاف

قال حسان بن ثابت:

أصون عرضي بِمَالي لَا أدنسه ... لَا بَارك الله بعد الْعرض فِي المَال
أحتال لِلْمَالِ إِن أودى فأجمعه ... وَلست للعرض أَن أودى بمحتال
أصون أحفظ والمعنى إني أبذل مالي لحفظ عرضي كيلا يلحقني عيب ومذمة ولا خير في بقاء المال بعد ذهاب العرض.

أودى هلك والمعنى أني أجد طرقا كثيرة لجمع المال إذا ذهب ولا توجد طريق لاسترجاع العرض لو ذهب (التبريزي، ٢٠٠٨).

ومن أجمل ما قيل في خفر النساء وعفتهن قول الشنفري الأزدي في غزله، وهو من الصعاليك الفتاك:

لقد أعجبتني لا سقوطاً قناعها إذا ما مشت ولا بذات تلفت
أميمة لا يخزي فتاها حليلها إذا ذكر النسوان عفت وجلت
إذا هو أمسى آب قرة عينه مآب السعيد لم يسل أين ظلت.

ولم تكن غيرة أحدهم قاصرة على عرضه فحسب، بل إنه يغار على عرض جيرانه وقرابته وقبيلته، ومنه قول عنترة.

قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أمـسى على تلفي مصرّا ... لقلـت معذبي بالله زدنـي
ولا تسمح بوصلك لي فإني ... أغار عليك منك فكيف منّي

وقال آخر (الأبشيهي، ١٩٩٨):

أغار عليك من نظري ومنّي ... ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أنّي خبأتك في جفوني ... إلى يوم القيامـة ما كفــاني

وتابعهم في ذلك حذاق من اشتغل بالشعر:

فقال جرير يمدح الْحجَّاج:

أم من يغار على النِّسَاء حفيظة إِذْ لَا يثقن بغيرة الْأَزْوَاج

وَقَالَ أَبُو نواس:

وَمن دون عورات النِّسَاء غيور

قَالَ إِبْرَاهِيم بن الْمهْدي فِي المعتصم وَقد نَالَتْ الرّوم طرفا من أَطْرَاف الْمُسلمين:

يَا غيرَة الله قد عَايَنت فانتقمي ... تِلْكَ النِّسَاء وَمَا مِنْهُنَّ يرتكب

فَهَب الرِّجَال على أجرامها قتلت ... مَا بَال أطفالها بِالذبْحِ تنتحب

وَهُوَ أول من قَالَ « يَا غيرَة الله» فَخرج المعتصم من وقته إِلَى الرّوم فَكَانَ فتح عمورية (التبريزي، ٢٠٠٨).

وفي غيرة نسائهم أمثال اشتهرت، وأشعار رويت؛ ففي الأمثال قال أكثم بن صيفي: تجوع الحرة ولا تأكل بثديها (إبراهيم، ١٩٩٧).

وَلست بسائل جارات بَيْتِي ... أغياب رجالك أم شُهُود

وَلست بسائل الخ هَذَا كِنَايَة عَن الْعِفَّة يَقُول لَا أكلم جاراتي لِأَنِّي أصونهن عَن الْكَلَام ورجالك الأَصْل فِيهِ رجالكن وَهَذَا جَائِز فِي الشّعْر فَقَط

ولست بسائلٍ جارات بيتي ... أغيابٌ رجالك أم شهود

يحتمل وجهين: أحدهما أن يتبجح بتعففه في جاراته، وأنه لا يتطلب مفارقة القيمين بهن، بمرصداً للتمكن منهن، فيكون ذلك باعثاً للسؤال عن رجالهن، ليغتنم الخلوة بهن. والثاني أن يريد رفع الطمع عن جيرته، وقلة الفكر في تتبع أحوالهم، عند حضورهم وغيبتهم، إذ لم يكن همه في النيل منهم، ومشاركتهم فيما يتجدد لهم من خير، فعل المسف للمطامع الدنية (التبريزي، ٢٠٠٨).

وقال النابغة الذبياني (قتيبة، ٢٠٠٢):

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

٣. محاكمة العفة والغيرة

إن الميزان المعتبر هو ميزان الترجيح بين المصالح والمفاسد، وثبت بالاستقراء أن وأد العربي للبنات زيادة غيرة على الأعراض، فكان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها: ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا صارت ابنته سداسية يقول لأمها: طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرا في الصحراء. فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض. ومنهم من كان إذا قربت امرأته من الوضع، حفر حفرة لتتمخّض على رأس الحفرة. فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنا حبسته. وهذا ما أبطله التشريع وحكم عليه بالإلغاء.

الخاتمة

وفي ختام التطواف بهذا البحث المختصر عن عفة العربي وغيرته على عرضه نجد: أن التشريع رفع الإسلام المرأة وبين عظيم قدرها وأنها شقيقة الرجل في المجتمع وقرينته في العمل والحساب؛ وأن العفة والغيرة ما أرقى ما خلد التشريع ما لم يصادم أصلا كليا؛ والتذرع بالوسائل المحرمة لمقاصد حسنة لا يشفع، فوأد العربي بقصد التخلص من العار من المقاصد المتوهمة عنده والتي لا قطع بحصولها فكتب الشرع بإبطالها؛ وبيان أن الشريعة أتت للحفاظ على النفوس وأنها من أعظم المقاصد الكلية التي راعتها من جانب الوجود والعدم.

المراجع

الأبشيهي، شهاب الدين. (١٩٩٨). *المستطرف في كل فن مستطرف*. بيروت: عالم الكتب.

الأبياري، إبراهيم. (١٩٨٥). *التعريفات للجرجاني*. بيروت: دار الكتاب العربي.

الأصمعي، محمد عبد الجواد. (١٩٢٦). *الأمالي لأبي علي القالي*. القاهرة: دار الكتب المصرية.

التبريزي، أبي زكريا يحيى. (٢٠٠٨). *شرح ديوان الحماسة*. بيروت: دار القلم.

الحميد، محمد محي الدين عبد. (١٩٧٧). *روضة العقلاء لمحمد ابن حبان البستي*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الحوفي، حمد محمد. (١٩٥٢). *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*. مصر: مكتبة نهضة.

العجمي، أبو اليزيد أبو زيد. (٢٠٠٧). *الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني*. القاهرة: دار السلام.

إبراهيم، محمد أبو الفضل. (١٩٩٧). *الكامل في اللغة والأدب، محمد بن يزيد المبرد أبو العباس*. القاهرة: دار الفكر العربي.

خاطر، محمود. (١٩٩٥). *مختار الصحاح لمحمد الرازي*. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

علي، جواد. (٢٠٠١). *المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام*. بيروت: دار الساقي.

قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن. (٢٠٠٢). *الشعر والشعراء*. القاهرة: دار الحديث.

منظور، ابن. (٢٠٠٩). *لسان العرب*. بيروت: دار صادر.

ناجي، محمود حسن أبو. (١٩٨٤). *شعراء العرب الفرسان في الجاهلية والإسلام*. بيروت: المكتبة الأدبية.